الحافظ بقي بن مخلد القرطبي ودوره في التّمكين لمذهب أهل الحديث في الأندلس

Al-Hafiz Baqi bin Makhlid Al-Qurtubi and his role in enabling the doctrine of the people of hadith in Andalusia

مجاهدي إبراهيم، طالب دكتوراه،

آثار إسلامية، جامعة تلمسان.

الإيميل المهني: brahim.medjahdi@univ-tlemcen.dz

ت. الارسال: 23. 07. 2021	ت. المراجعة: 30. 07. 2021	ت. القبول: 02. 08. 2021

الملخص:

عرفت شبه الجزيرة الإيبيرية أواخر القرن الأول للهجرة تحولات جذرية وشاملة، وذلك في إطار الصراع بين الشّرق والغرب الذّي أدّى إلى وضع اللّبنة الأولى لدولة الإسلام، وكذا القضاء المبرم على دولة القوط المتهالكة، واستمرّت دولة الإسلام حتّى القرن التّاسع للهجرة، مخلّفة لنا حضارة أضحت محل ثناء عامة المؤرخين المسلمين والأجانب، كلّ هذا كان نتاج تفوّق عدد من علماء المسلمين كلّ في مجاله، ويبقى الحافظ بقي بن مخلد أحد هؤلاء القامات العلمية التّي مكّنت لمذهب أهل الحديث بالأندلس.

الكلمات المفتاحية: مذهب أهل الحديث، بقي بن مخلد، المذهب المالكي، الأندلس.

Le résumé

The Iberian Peninsula, at the end of the first century of migration, experienced radical and comprehensive transformations, in the context of the conflict between East and West, which led to the establishment of the first building block of the Islamic state, as well as the final elimination of the decrepit Gothic state. Muslim and foreign historians, all of this was the result of the superiority of a number of Muslim scholars, each in his field, and Al-Hafid Baqi Ibn Makhlid remains one of those scholarly statures that enabled the doctrine of the people of hadith in Andalusia.

Key words : the doctrine of the people of hadith, Baqi bin Makhlad, the Maliki school of thought, Andalusia.

المؤلف المرسل: مجاهدي إبراهيم، **الإيميل:** brahimtlmcuat@gmail.com

مقدمة

لا شكّ أنّ الفاتحين الأوائل نقلوا للأندلسيين تعاليم الإسلام من منابعها الصافية، التي تتوافق والفطرة السليمة التّي جعلت المسلمين يفتحون القلوب قبل فتح الأمصار، فبمجرّد تثبيت حكمهم شرعوا في دعوة الناس إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، كلّ هذا من خلال علماء أجلّاء وربّانيين أمثال: صعصعة بن سلام الذي نقل تعاليم مذهب الأوزاعي من بلاد الشام ثم تلاه النشاط الكبير لعلماء المالكية، قبل النّقلة النّوعية التي أقدم عليها علماء الحديث، وفي مقدّمتهم الحافظين: محمد بن وضّاح وبقي بن مخلد القرطبيين.

ونحن في مقالنا هذا الموسوم بـ: "**بقي بن مخلد ودوره في التّمكين لمذهب أصحاب الحديث بالأندلس**"، سنسلط الضوء على جانب من جوانب الحضارة الإسلامية في الأندلس المتمثّل في الحياة الدينية، وإسهامات العلماء في إدخال هذه البلاد إلى الحظيرة الإسلامية مركّزين على الحافظ بقي بن مخلد القرطبي وجهوده مع عدم إغفال جهود العلماء السابقين واللاحقين، واختيارنا لهذه الشخصية راجع أوّلا لجهودها وصبرها في طلب العلم ، ثمّ كثرة ترحالها إلى كل حدب وصوب وتحريها في أخذ الحديث وتمييز صحيحه من سقيمه ثانيا، إضافة إلى محاولتنا دراسة الأطوار الدينية التي تقلبت فيها الأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى غاية عصر بقي بن مخلد.

كلّ هذا يأخذنا إلى طرح الإشكالية التّالية: " **كيف ساهمت شخصية الحافظ بقي بن مخلد في التّمكين لمذهب أهل الحديث في الأندلس؟**"

تكمن أهميّة البحث في كونها تعالج شخصية مهمّة في العالم الأندلسي، استطاع صاحبها الوصول نشر مذهب أصحاب الحديث وتوسيعه ، في خضمّ الحياة الدّينية آنذاك القائمة كلّيا على الاحتكام إلى فقه الإمام مالك الذّي استطاع أن يأخذ مكانة المذهب الأوزاعي أول المذاهب الإسلامية في الأندلس.

كما تبرز أهمية هذا المقال من خلال التّعريف بالحافظ بن مخلد الذّي لم تتناوله الدّراسات كثيرا، اللهمّ إلّا بعض البحوث الجزئية أو الفردية المشار إليه.

لا يخفى على الجميع أن المنهج التّاريخي هو السّبيل الوحيد المرجو إتباعه في مثل هذه الدّراسات، لأنه قائم على التأصيل الزّمني لفترة الدّراسة، وإن كان المنهج التّحليلي هو الآخر يساهم في تكوين فكرة شاملة للدّراسة.

1. الحياة الدّينية في الأندلس قبل عصر بقي بن مخلد

فتحت الأندلس سنة 92هـ وذلك بفضل جهود القائدين المسلمين موسى بن نصير بن عبد الرّحمن اللّخمي (ت: 97هـ) قبل عزله من طرف سليمان بن عبد الملك وطارق بن زياد اللّيثي (ت: 102هـ) الذّي أسلم على يد موسى بن نصير وعيّن واليا على طنجة وقاد جيوش الفتح التّي هزمت القوط في معركة واد لكّة سنة 92هـ (الزّركلي، 2002: 217-218)، ولأن الجيوش الإسلامية الفاتحة كانت تنطلق من مقر الخلافة الأموية في دمشق، فإن المذهب الذي ساد في البداية هو مذهب الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (ت: 157هـ) إمام الدّيار الشامية في الفقه والزهد بعديد المؤلّفات، والتّي قدّر العلماء أنه أجاب فيها عن أزيد من سبعين ألف مسألة، انتشر مذهبه في الأندلس على يد طائفة من العلماء التّابعين ،أشهرهم المحدث صعصعة بن سلام الذّي تكاد تجمع الروايات على أنّه أوّل من دخل بمذهب الأوزاعي القائم على الحديث إلى بلاد الأندلس أيام الحاكم الأموي عبد الرحمن الداخل (الخضر، 1928: 50-55)، وقد استمر هذا المذهب إلى غاية حكم هشام الرضا (ت: 180هـ) بن عبد الرحمن الداخل الذّي تولّى الحكم سنة 171هـ، وكان عادلا فاضلا فسمي بالرضا (الآبار، 1985: 41-42)، حيث بدأت تتجمع في قرطبة وسائر بلاد الأندلس جماعات صغيرة من فقهاء المالكية منهم من أخذ عن مالك ومنهم من أخذ عن تلاميذه.

ويُذكر أن عدد الأندلسيين الذين سمعوا من مالك يتجاوز اثني عشر رجلا أشهرهم على الإطلاق الغازي بن قيس وزياد بن عبد الرحمن المكنّى بـ:"شبطون" وإلى هاذين العالمين تنسب معظم المصادر التّي لعبت دورا رياديا في إدخال موطأ مالك (الهنتاتي، 2004: 37).

لم يكن التّوجه نحو مذهب مالك اعتباطيا، فقد كان رجلا مهيبا جليل السّمت يجلس لتلاميذه وكأنّه سلطان عظيم بين رعيته حتى قال أحد تلاميذه:"إنّه ما هاب أحدا كما هاب عبد الرحمن الداخل فلما لقي مالكا تضاءلت في نفسه هيبة الدّاخل إلى هيبة مالك" (مؤنس، 1997: 218)، إضافة إلى أنّ مالكا نفسه كان محدّثا وكان أتباعه ينظرون إلى"الموطأ" على أنّه مسند فدرسوا أحاديثه دون تعليقات صاحبه (مؤنس، 1997: 46)، كما أن مذهب مالك يتلاءم مع طبيعة سكان الغرب الإسلامي، فهو مذهب عملي أكثر منه نظري، إذ يعتدّ بالواقع ويأخذ بأعراف الناس وعاداتهم وتقاليدهم، فيتماشى والفطر السليمة لسكان المغرب القائمة على البساطة والوضوح والبعد عن التّعقيد (الجيدي، 1982: 168) .

إضافة إلى ذلك، فإن الإمام مالك نفسه كان كثير الثناء على هشام بن عبد الرحمن الداخل، فلما وفد أوائل تلاميذه رحّب بهم هشام وجالسهم وأذن لهم في تدريس مذهبه وأخذ القضاة الحكم به، ويمكن تفسير اعتناق الأندلسيين

لمذهب مالك باعتباره مذهب دار الهجرة ولكونه أقرب المذاهب لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم وهي مستقر الصّحابة المتأخرين والتّابعين الأولين (غماري، 2014: 12).

وهكذا تحولت الأندلس إلى قلعة منيعة من قلاع أهل السّنة المحافظين بل أقوى حصون المالكية، وقرّب هشام الرضا إليه الفقهاء المالكية وأشهرهم يحي بن يحي اللّيثي الذّي كان تلميذا مباشرا لمالك متعصّبا لمذهبه يشاوره هشام في أمور القضاء، غير أنه سرعان ما أصيب هذا المذهب بالجمود والركود والفتور وتمهيدا لنشأة مدرسة أهل الحديث على يد محمد بن وضاح وبقي بن مخلد القرطبي.

2. بقي بن مخلد القرطبي: مولده، نسبه، صفاته وثناء العلماء عليه:

بقي بن مخلد بن يزيد، الإمام، القدوة، شيخ الإسلام أبو عبد الرّحمن الأندلسي القرطبي الحافظ صاحب التّفسير والمسند اللّذين لا نظير لهما (الذّهبي، 1983: 285) ولد في رمضان سنة 201هـ وتوفي سنة 276هـ (الفرضي، 1989: 171) .

نشأ في قرطبة ويبدو أنّه لم يكن في رفاهية من العيش ، فقد عانى الأمرّين في طلب العلم و روي عنه أنه كان يقول : "إنّي لأعرف رجلا كانت تمضي عليه الأيّام في وقت طلبه ليس له عيش إلا ورق الكرنب" (شبهة، 1962: 103)، تلقّى تعليمه الأول على يد محمد بن عيسى المعافري، وقد أثّر فيه على التّوجه نحو الحديث ودراسة الأثر.

وبعد أن شبّ على الطّوق، اعتزم الرّحيل لطلب العلم، فذكر المؤرخون له رحلتين إلى المشرق طلب العلم فيهما على يد مائتين وأربع وثمانين شيخ (الفرضي، 1989: 170)، أمّا الرّحلة الأولى فلم تصرّح المصادر بتاريخ بدايتها والمحتمل أنّها كانت سنة 224هـ وذلك قياسا بالمشايخ الذّين حدّث عنهم وكذا تاريخ ميلاده المتّفق عليه بين المؤرّخين، فقد بلغ الكوفة سنة 228هـ وهناك التقى ببشر بن بشر الحريري ويحي بن عبد الحميد الحمّاني وحمل العلم عن أهل الحرمين، ومصر، والشام، والجزيرة، وحلوان، والبصرة، والكوفة، وواسط، وبغداد، وخراسان، وعدن، والقيروان (العمري، 1984: 36).

وذكر بقي أنّه لما قرب من بغداد كان زمن محنة خلق القرآن، وكان الإمام أحمد ممنوع الاجتماع إليه والسّماع منه، فذهب إليه وقرع بابه، وأعلمه أنه طالب حديث، واتّفقا على حيلة، وهي أن يأتي بقي في زيّ متسوّل، وهكذا حتى انجلى غمام المحنة بالانتصار للحق (العمري، 1984: 38).

وقد دامت رحلته الأولى عشرون سنة وارتحل في رحلته الثانية نحو المشرق ومكث هناك أربعة عشر عاما (العمري، 1984: 36) ، فأصبح بذلك بحرا ونال أجر طلب العلم حتّى أصبح محلّ ثناء من أقرانه من العلماء الأجلّاء.

ونتيجة لمكانته الكبيرة، فقد كان محلّ ثناء من علماء الإسلام، إذ ذكر عن الذّهبي أنّه قال له :"لقد غرست غرسا لا يقلع إلّا بخروج الدّجال" وذكر أيضا عنه أنّه : "كان إماما، عالما، قدوة، مجتهدا، لا يقلّد حجّة، صالحا عابدا متهجّدا أوّاها" (الذّهبي، 1983: 286)، وقد أفرد الأستاذ محمد بن محمد أبو شبهة في تناوله لبقي بن مخلد كأحد المحدّثين الذّين ذكرهم في كتابه عديد الأقوال التّي ثنّت عليه (شبهة، 1962: 105) كابن حزم الذّي قال عنه : "كان بقي من خاصّة ابن حنبل وجاريا في مضمار البخاري ومسلم"، وكذا أحمد بن أبي خثيمة الذّي مدحه قائلا :"وهل يحتاج بلد فيه بقي بن مخلد أن يأتي منه إلينا أحد"، زيادة عن السّيوطي الذي قال فيه :"عنّي بالأثر وليس لأحد مثل مسنده في الحديث ولا في التفسير".

3. دوره في إدخال مذهب أهل الحديث :

لا ننكر أنّ الأندلس كانت دار حديث منذ بداية الفتوحات الإسلامية، فقد حرص المسلمون الفاتحون على نشر كتاب الله وسنة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ جاء عهد الدّولة الأموية، فانتشر المذهب المالكي لكونه إمام دار الهجرة فهو أصحّ مذهب باعتراف المسلمين .

وفي مطلع القرن الثالث الهجري بدأ يتسرّب إلى الأندلس مذهب أهل الحديث شيئا فشيئا، وكان في طليعة ذلك المحدّث محمد بن وضاح غير أن هذا الأخير لم يؤت ملكات تخوّله ليحقّق النّقلة النّوعية في الأندلس لصلته الكبيرة بالبيت الأموي ولتشبثه بالمذهب المالكي (مؤنس، 1997: 51).

هذا ويجمع المؤرخون على أن بقي بن مخلد ومحمد بن وضّاح هما أوّل من أدخلا مذهب أهل الحديث للأندلس ولكن في الحقيقة أن بلاد الأندلس عرفت علم الحديث منذ فتحها وترسيخ أركان الدولة الإسلامية فيها كما أسلفنا، أمّا إجماع المؤرّخين هذا، فمردّه للمادّة الحديثية الكبيرة التّي أدخلوها وأيضا لتعرّضهما للنقد والتجريح من أهل البلد (الصّمدي، 2006: 37) .

بعد رحلة بقي بن مخلد الشّاقة في طلب العلم والتّي فاقت الثّلاثين عاما والتقى فيها بخيرة المحدّثين، عاد إلى الأندلس عازما هذه المرة على تحويلها إلى قلعة من قلاع الحديث، ابتدأ نشاطه بنشر الحديث والإفتاء بالأثر دون التقيد بآراء الإمام مالك ، ومضى يبيّن فضائل الرّجوع للأثر، وأخذ يقرأ مسند ابن أبي شيبة ويشرحه، وقرأ كتاب الأم وأقبل

النّاس على دروسه، وبدا لطلّابه أنهم أمام مستوى جديد من العلم ،كما أدخل كتبا لم تكن معروفة عند الأندلسيين، فإلى جانب سماعه الموطأ والمسانيد الكبرى دخل الأندلس بكتاب الفقه الكبير للشافعي، ومسند أبي بكر بن أبي شيبة، وكتاب التّاريخ لخليفة بن خياط، وكتابه في الطّبقات ، وسيرة عمر بن عبد العزيز للدّورقي (مؤنس، 1997: 53).

أمّا عن مؤلّفاته وتصانيفه، فقد وضع تفسيرا للقرآن بلغ من كماله أنّ ابن حزم قال :"هو كتاب أقطع قطعا أنّه لم يؤلّف في الإسلام مثله لا تفسير محمد بن جرير ولا غيره" إضافة إلى ذلك ألّف مصنّفا كبيرا رتّبه على أسماء الصّحابة رضي الله عنهم فروى عن 1300صحابي (الحميدي، 2008: 251-252).

4. رد فعل علماء الأندلس:

لم يستسغ علماء الأندلس ما قام به بن مخلد، فبمجرّد عودته من رحلته الثانية سنة 244هـ بزاد كبير من العلم غريب عن الأندلس سعوا به عند السّلطان (العمري، 1984: 53)، وأخذوا يخوّفونه من الخطر السّياسي وهو اختلاف كلمة المسلمين وحرّضوا العامّة عليه ووصفوه بأنّه مارق عن الدّين ومنعوه من قراءة مسند ابن أبي شيبة ، بل بلغ من تعصّب أصبغ بن خليل شيخ العلماء حيث قال: "لأن يكون في تابوتي رأس خنزير أحب إليّ من أن يكون فيه مسند بن أبي شيبة" (مؤنس، 1997: 53) .

ولم يكتفوا بذلك ، بل سعوا إلى حتفه وحرّضوا على سفك دمه أنفة منهم لما أدخله عندهم من الرّوايات المختلفة لرأيهم، وكان من جملة المعارضين عبد الله بن خالد ومحمد بن الحارث صاحب الصلاة والشرطة (الخشني، 1991: 57)، هذا من جهة ومن جهة أخرى أسرع علماء المالكية إلى الأمير محمّد يخوّفونه من بقي، فدعاه وتناول مسند ابن أبي شيبة وقرأه ثم ردّه على صاحبه، وأمر خازن كتبه أن ينسخ له نسخة وقال لبقي: "انشر علمك وأرو ما عندك" ونهاهم عن التّعرض له، فلم يتعرضوا له منذ ذلك امتثالا لأمر الأمير (مؤنس، 1997: 54-55).

و هكذا، مكّن الله له بمنّه وفضله وأظهره عليهم وعصمه منهم فنشر حديثه وقرأ روايته، فمن يومئذ انتشر الحديث بالأندلس وانطلق بقي يعلّم ويؤلّف وأصبحت الأندلس قلعة منيعة من قلاع أهل الحديث.

خاتمة

إن الوقوف على التاريخ الديني للأندلس، والدور الكبير الذي لعبه العلماء بصفة عامة والحافظ بقي بن مخلد القرطبي بصفة خاصة يحيلنا إلى مدى صبر وتفاني هذا العالم المحدّث في طلب العلم والتبليغ والتصنيف .

لم تكن مهمة المحدث بقي بن مخلد سهلة في نشر مذهب أهل الحديث، فقد تصدّى له علماء المالكية وعلى رأسهم أصبغ بن خليل، وذلك رغم أن مذهب الإمام مالك يميّزه عن مذهب أهل الحديث أنه أخذ بآراء مالك ولولا تدخل الأمير الأموي وفضّه للنّزاع وردّ الاعتبار لبقي لما أمكنه نشر مذهبه.

إن طول أمد الرحلة في طلب العلم من قبله تجعلنا نندهش بمدى إخلاص الرجل في طلب العلم وتفانيه، خاصة وأنّه كان فقيرا ورعا ساعيا للعلم منفقا مداوما على حضور الجنائز كل هذه الصفات الخلقية والخلقية جعلت الناس يقبلون على دراسة علمه زرافات ووحدانا.

من خلال دراستنا البسيطة هذه، نرى أنّه يجب علينا أن نتوسّع قليلا على مثل هذه الدّراسات التّي تسعى إلى التّعريف برجال الإسلام وعلمائه عبر التّاريخ وفي مختلف الأصقاع الإسلامية.

كما نودّ أن نذكّر بالدّور الكبير الذّي من الممكن أن تضطلع به هذه الأنواع من البحوث، لو تلقى الأرضية السّانحة لاحتضانها كمختلف التّظاهرات العلمية من ملتقيات وندوات وأيام دراسية وغيرها، أو عبر الحوامل والأوعية الورقية والإلكترونية كالمجلاّت والمذكّرات والأطروحات.

البيبليوغرافيا

المصادر (الكتب و المقالات)

1. ابن الآبار. (1985). *الحلّة السيراء* (الإصدار ط2، المجلد ج 1). القاهرة: دار المعارف.
2. ابن الفرضي. (1989). *تاريخ علماء الأندلس* (الإصدار ط2). (تحقيق: إبراهيم الأبياري، المحرر) القاهرة: دار الكتاب المصري.
3. أبو عبد الله الحميدي. (2008). *جذوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس* (الإصدار ط1). (تحقيق: بشار عوّاد معروف، المحرر) تونس: دار الغرب الإسلامي.
4. شمس الدّين بن عثمان الذّهبي. (1983). سير أعلام النّبلاء (الإصدار ط1). (شعيب تحقيق: أرناووط، المترجمون) بيروت: مؤسسة الرّسالة.
5. محمد بن الحارث الخشني. (1991). أخبار الفقهاء والمحدّثين. (تحقيق: لويس مولينا، المحرر) مدريد: المجلس الأعلى للابحاث العلمية.
6. محمد بن محمد أبو شبهة. (1962). أعلام المحدّثين. القاهرة: مركز كتب الشّرق الاوسط.

المراجع (الكتب و المقالات)

1. حسين م. (1997): شيوخ العصر بالأندلس (الإصدار ط2). القاهرة: دار الرّشاد.
2. الجيدي ع. (1982): نظرات في المذهب المالكي. الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
3. الخضم. ك (1928). علماء الإسلام في الأندلس. المطبعة السّلفية ومكتبتها: القاهرة.
4. الزّركلي خ.(2002): الأعلام. بيروت: دار العلم للملايين.
5. الصّمدي خ. (2006): مدرسة فقه الحديث بالغرب الإسلامي. الرّباط: منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية.
6. العمري أ.ض. (1984): *بقي بن مخلد القرطبي ومقدّمة مسنده* (الإصدار ط1). المدينة المنوّرة: خزانة التّراث العربي.
7. غماري ك. (2014): المذهب المالكي واختصاصه بالمصالح المرسلة بين النّظري والتطبيق. *مجلّة الثّقافة الإسلامية* (عدد 12)، 9-22.
8. الهنتاتي ن. (2004): *المذهب المالكي بالغرب الإسلامي*. تونس: منشورات تبر الزّمان.